سادتي الأفاضل [١] !

يعجز لساني عن التعبير عن عواطف الشكر والامتنان التي أشعر بها لما أوليتموني من شرف الانتساب الى مجمعكم الكريم . وبقيني أنكم تعلمون تقصيري في ميادين الفصاحة والبلاغة وأنكم لذلك سوف تنظرون الى كلمتي هذه بما اشتهر عنكم من اللطف والتسامح .

ولا يساورني أدنى شك في أنكم لا تنتظرون مني بحثاً شاملاً عن الأستاذ الرئيس (محمد كرد علي) ، فقد عاشرتموه زمناً طويلاً وعرفتم عنه كل شيء . وقد أجاد عضو المجمع المحترم الدكتور سامي الدهان في كلمة الذكرى التي كتبها عن الأستاذ الرئيس فأبدع في تصوير شخصيته الجذابة وتعداد مزاياه السامية ووصف حياته الحافلة والاشارة الى آثاره الجليلة . ثم أفدم عميد الأدب في الشام الأستاذ الكبير شفيق جبري على إلقاء محاضراته عن (محمد كرد علي) بمعهد الدراسات العربية العالية في القاهرة فبلغ منتهى الكمال في الاستقصاء والتحليل . وقد عادت هذه المحاضرات بالذاكرة الى العصر الذي نشأ فيه (محمد كرد علي) وكشفت عن أثر ذلك العصر في تحديد ثقافته وتوجيه تفكيره وتقرير منهجه في العمل . واستفاضت المحاضرات في بيان المعارك التي خاضها (محمد كرد علي) في سبيل الاصلاح والتقدم ، فوصفت لنا جهاده العنيف في ميدان الصحافة ودفاعه المجيد عن العرب والإسلام . وقد برهن الأستاذ شفيق جبري على براعة فائقة في تحليل تآليف (محمد كرد علي) وابراز محاسنها الكثيرة دون اخفاء عيوبها القليلة ، كما انه لم يتستر على نقائص الأستاذ الرئيس وشدة

---

(١) الكلمة التي ألقاها الدكتور محمد كامل عياد في جلسة استقباله عضواً عاملاً ، مترجماً فيها سلفه المرحوم الأستاذ الرئيس محمد كرد علي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

عصبيته وصعوبة مزاجه ، لأن هذه العيوب والنقائص والاندفاعات لا تقلل من الإعجاب بنبوغه وفضله وجهاده .

أيها السادة !

لقد قيض لكم أن تعيشوا مع الأستاذ (محمد كرد علي) فوجدتم فيه رائداً وقائداً ناضل وضحى في سبيل تأسيس المجمع العلمي العربي ودافع عن كيانه وبذل جهوداً جبارة لتنظيم أعماله واعلاء شأنه .

وقد تقدمتم أشواطاً بعيدة في الطريق التي نهجها ، وكان لكم الفضل في تحقيق الكثير من الأهداف التي وجه الأفكار اليها .

وأظن أنكم انما تكرمتم بانتخابي زميلاً لكم كي أشترك معكم ، بقدر استطاعتي ، في العمل على بلوغ جزء آخر من تلك الأهداف .

هذه المهمة تفرض علي أن أتحدث اليكم عن بعض النواحي من نشاط الأستاذ الرئيس ومباحثه التي استرعت انتباهي واستطعت الإلمام بها .

عرفت الأستاذ (محمد كرد علي) منذ سنة ١٩١٧ ، عندما كان يحرر في جريدة (الشرق) . ومن المعلوم أن هذه الجريدة كان قد أسسها القائد التركي (جمال باشا) وحشد عدداً من كبار الكتاب للاشتراك في تحريرها مثل الأستاذ (محمد كرد علي) والأمير شكيب أرسلان والشيخ عبد القادر المغربي والشيخ بدر الدين النعساني . وقد اشتغلت فيها ، وأنا تلميذ ، بترجمة الأخبار من الألمانية الى العربية . وهكذا سنحت لي الفرصة لأتدرب على الصحافة تحت إشراف الأستاذ (محمد كرد علي) . كما قمت بعد ذلك بمراسلة جريدته (المقتبس) أثناء دراستي في جامعة برلين بين سنة ١٩٢٢ و ١٩٢٨ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

في غمار الصحافة :

كان الأستاذ (محمد كرد علي) صحافياً في الدرجة الأولى . ولا بد لنا من تذكر هذه الحقيقة عند البحث في تفكيره وأعماله وفي الحكم على شخصيته .

لقد مارس الصحافة منذ أول شبابه إذ أخذ يكتب المقالات في الجرائد وهو ابن ست عشرة سنة ، حسب قوله . ثم تولى ، وهو في الثانية والعشرين من عمره ، تحرير جريدة (الشام) ، واتصل أثناء ذلك بمجلة المقتطف ونشر فيها بعض المقالات .

وفي مصر تولى تحرير جريدة (الرائد المصري) ثم جريدة (الظاهر) وكتب في جريدة (المؤيد) المشهورة ، كما أسس مجلة (المقتبس) الشهرية .

وبعد الانقلاب العثماني سنة ١٩٠٨ عاد الى دمشق ونقل اليها المجلة وأصدر الى جانبها جريدة يومية بالاسم ذاته . .

رأى الأستاذ (محمد كرد علي) في الصحافة وسيلة فعالة للاصلاح . فانصرف الى هذه المهنة بكل قواه وسعى جهده الى رفع مستواها ونجح في ذلك نجاحاً باهراً .

كانت دعوته منذ بادئ الأمر تتلخص ، كما يقول ، في « حفز العرب الى العمل النافع والتذرع بالمشاريع المنتجة ، وبعث القرائح واستخدام الكفاءات ونشر التعليم بين الطبقات الجاهلة » . (المذكرات ، الجزء الأول صفحة ٦١) . انه كان يتصور الصحف « كمدارس سيارة تنير الأفكار وتعرف الناس معاني المدنية وتطلعهم على أحوال الأمم ونهوضها ، والدول وسياستها ، وتحمل اليهم مجملات من العلوم والآداب » . (« أقوالنا وأفعالنا » ص : ١٧٠) .

وقد أشاد الأستاذ الرئيس بالجهود التي بذلتها الجرائد والمجلات في بلاد الشام لغرس الروح الوطنية في المجتمع وتلقين الشعب تربية سياسية صالحة ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقال انها علمت الجماهير « استعمار المستعمرين وتدليس المدلسين ، وأن أمتهم كانت شيئاً مذكوراً فيما مضى وأنه لا حياة لأحفادها بدون الاخذ من سيرة الأجداد والاقتباس من المدنية الحديثة كل ما لا ينزع منهم مشخصاتهم ومقدساتهم ، وأن لا قيام لأمرهم إلا بالقومية العربيـة ، وأن نغمة الدين وحدها لا تنجيهم مما هم فيه لأن التساهل بأمور الدنيا يذهب بالدين والدنيا معاً ، كما علمتهم أن الغرب لا يريد خيراً للشرق وأن الشرق شرق والغرب غرب ... » (خطط الشام الجزء : ٤ ص : ٦٠) .

ألا ان الأستاذ (محمد كرد علي) قد لاحظ أيضاً ما طرأ على الصحافة من فساد وانحراف فقال ان هناك صحفاً تضلل العقول وتزيد في ظلمة الأفكار وتدعو الى أكثر من مذهب سياسي وتتناول معونات من عدة دول حتى توهم الناس أنها آلة للتكسب والتدجيل ، لا أداة للوعظ والإرشاد والتعليم . لذلك كان ينتقد الحكومات لتساهلها في منح الطفيليين امتيازات اصدار الصحف .

صفات الصحافي :

وكان يشترط في الصحافي أن يكون على علم كثير وخبرة واسعة وأن يتقن لغة أو لغتين من لغات العلم والسياسة وأن يكون من طبقة تحسن استعمال عقلها والاحتفاظ بكرامتها وممن عانى البحث والدرس وتذوق الشرائع وأحاط بتاريخ أمته واجتماعها وحياتها الاقتصادية وثوراتها وضعفها وقوتها وأوضاعها وأحزابها ونقاباتها وشركاتها .

ويصف الصحافي بأنه « قاض يتجدد على الأيام ما يعرض عليه من قضايا وتقتضيه أحكامه ذوقاً سليماً ونقداً عادلاً وأدباً غضا » . ويرى أن الصحافي « صاحب دعوة تفسد بأقل هوى يتبعه وأنه مربي عقول ونفوس ومنشئ أمة وعمران » . ويقول عنه « انه معلم لا انتهاء لمهمته الا بانتهاء عمره ، ومهمتـه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

تتلون كل ساعة بلون ويطلب من صاحبها أبداً أن يطلع على قرائه كل يوم بجديد .. هو يجمع الى عمل القاضي عمل الباحث والى صنعة الفنان صنعة النقاد والى صفة الأديب صفة الاقتصادي والى مرح الأدباء حكمة الحكماء . ويحتاج الى بديهة ، والى روية ، والى سرعة ، والى أناة ، يراقب كل صاحب سلطة ويدافع عن كل مظلوم وينفذ الى أحشاء كل أمر . هو صديق الحكومات وعدوهم وخطيب القوم ولسانهم ومؤرخهم ومؤدبهم ، يلقن ذوقاً ويلقح عقلاً ويدعو الى واجب ، يردد ما يرضي وما يغضب ، لا يكتم حقاً ولا ينشر الا عرفا » . (أقوالنا وأفعالنا ص : ١٧٥) .

ألا يخيل اليكم ، أيها السادة ، ان الأستاذ الرئيس عندما كتب هذه العبارات كان كأنما يصف نفسه ؟

كان الأستاذ (محمد كرد علي) صحافياً مثالياً ، مخلصاً لعمله ، شريفاً في مقاصده ، مدركاً لمسؤوليته ، صريحاً في إبداء آرائه . إلا أنه كان ، من جهة ثانية ، عاطفياً يتحمس بسرعة ويندفع بسهولة ويميل الى الشدة في نقد الفساد والانحراف ومكافحة الشر والضلال . وقد اعترف هو نفسه بأنه كان يغلو في الإنكار على المخربين حتى أصبح ذمهم ملكة مستحكمة فيه لا يستطيع الرجوع عنها ، وقال : « لا أنكر أن التيار كان يأخذني أحياناً ويشط بي القلم على غير عادتي » . (المذكرات الجزء الأول : صفحة : ٦١٢) إلا انه يستدرك قائلاً : « لكني لم ألجأ الى الطعن الشخصي بأحد » . وهو يعني بذلك انه ، عند مهاجمة الأشخاص الذين يعتقد فسادهم ، لم يكن يذكر أسماءهم . ولكن المقصودين بالنقد كانوا يعرفون أنفسهم ويعرفهم الناس .

كان طبيعياً أن يتعرض الأستاذ (محمد كرد علي) بسبب هذا النقد الى الأخطار وأن يضطهده رجال الحكم ويغضب عليه أعوانهم . إلا أنه من جهة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أخرى نال شهرة واسعة ومكانة مرموقة في المجتمع لما اتصف به من صراحة في القول وجرأة في النقد وحماسة في سبيل الاصلاح ...

من المؤسف أن الأستاذ (محمد كرد علي) قد انتهى به الأمر بعد الحرب العالمية الأولى الى كره الصحافة والى إغلاق جريدته (المقتبس) لأسباب سياسية ذكرها في مذكراته . (الجزء الأول صفحة : ٦٢ — ٦٣) .

ومهما كان الأمر فان اشتغال الأستاذ (محمد كرد علي) بالصحافة مدة طويلة قد ترك أثراً بالغاً في طريقة تفكيره وبحثه : انه أصبح واقعياً ، على صلة وثيقة بشؤون الحياة ومشاكل الناس ، بعيداً عن الأمور الخيالية والمفاهيم المجردة ، يميل في أسلوبه الى الوضوح والسهولة والايجاز . الا ان ممارسة الصحافة قد نجمت عنها صفات أخرى تدعو الى النقد مثل التسرع وعدم التعمق والتناقض . وقد سعى الأستاذ (محمد كرد علي) الى التحرر من هذه العيوب عندما انصرف أخيراً الى البحث العلمي .

ظل الأستاذ الرئيس ، بعد الحرب العالمية الأولى ، يدعو الى الاصلاح والتقدم والى الأخذ بأسباب القوة واستمر يعمل بنشاط لا مثيل له في المجمع العلمي العربي ، يدير شؤونه ويكتب المقالات في مجلته ويلقي المحاضرات في قاعته ، كما كان في الوقت نفسه يؤلف الكتب وينشرها .

أسس الإصلاح :

إن الدعوة الى الإصلاح عند الأستاذ (محمد كردعلي) ترتكز على بضعة أسس عامة ، محدودة ، مترابطة يدور بحثه دوماً حولها في كتبه ومقالاته ومحاضراته وأحاديثه وهي : ١) إحياء تراث العرب والمسلمين ، ٢) محاربة الجمود عند المشايخ وتنقية الدين من البدع والقشور ، ٣) تهذيب الأخلاق والعادات ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

٤) اتباع العقل والاهتمام بالأمور العملية ، ٥) اقتباس كل ما ينفع عن المدنية الغربية الحديثة ...

كان للأستاذ فضل كبير في إحياء التراث العربي — الإسلامي ، فقد قام بتحقيق ونشر عدد من الكتب العربية القديمة في العلم والأدب كما شجع غيره على الاقتداء به في هذا . كذلك نشر مختارات نفسية من مؤلفات كبار القدماء عني بشرحها وبيان قيمتها . ولا جدال في فائدة هذا العمل وضرورته . فانه لا بد لنا في نهضتنا الحديثة من الاستناد الى تقاليدنا التاريخية . الا انه لن يتيسر لنا الإفادة كما ينبغي من تراثنا القديم الا إذا أقدمنا على دراسة هذا التراث دراسة تحليلية ، انتقادية وتوصلنا الى تمييز ما هو صالح للحياة من الجامد البالي ..

الإصلاح الديني :

لم يتوقف الأستاذ (محمد كرد علي) منذ نشأته حتى آخر حياته عن مهاجمة الدجالين من رجال الدين ، وقد قال انه لا يبغض المشايخ لمجرد أنهم مشايخ ، فقد درس على نخبة منهم أمثال الشيخ طاهر الجزائري والشيخ محمد المبارك والشيخ سليم البخاري ، الذين أخذ عنهم واستفاد كثيراً من نصائحهم وكان دوماً يشعر نحوهم بالحب والاعجاب والاحترام . الا أنه كان يسيء الظن بالمشايخ على الإجمال ويمقت الكثيرين منهم ، وينتقد مظاهر الفساد بينهم .

وقد دافع الأستاذ بحماسة زائدة عن حركة الإصلاح التي قام بها جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده في مصر ثم الشيخ طاهر الجزائري في الشام ، وأشاد بذكر الإمام ابن تيمية الذي يسميه « أعظم مصلح في القرن الثامن وفي قرون كثيرة من قبله ومن بعده ، والذي أراد ارجاع الدين الى نضرته الأولى وتعريته من القشور التي ألصقها به الجهلة المتنسون » . (خطط الشام جزء ٤ ص ٥٠) ويقول عنه في مكان آخر : « لو عمت دعوته .... لسلم هذا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الدين من تخريف المخرفين على الدهر ، ولما سمعنا أحداً في الديار الإسلامية يدعو لغير الله ، ولا ضريحاً تشد اليه الرحال بما يخالف الشرع ، ولا يعتقد بالكرامات على ما ينكره دين أتى للتوحيد لا للشرك ، ولسلامة العقول لا للخبال والخيال » . (كنوز الأجداد ، ص : ٣٦٧) .

وذهب الأستاذ الى أن « من أعظم ما دعا الى انحطاط المسلمين غرامهم في عصور التدلي بصبغ معظم أمور الحياة بصبغة دينية » . فهو يريد فصل الشؤون الدنيوية عن الدين على نحو ما جرى في الغرب .

اصلاح الأخلاق :

لم تقتصر حملات الأستاذ (محمد كرد علي) على المفسدين من رجال الدين ، بل انه أطلق العنان لقلمه في نقد الفئات الأخرى من الأمة أيضاً . وقد أغرق في وصف مظاهر التأخر والانحطاط والتفسخ والانحراف في سلوك كثيرين من الأشخاص الذين عاشرهم أو سمع عنهم . هكذا نراه في آخر الجزء السادس من (الخطط) يعقد فصلاً طويلاً بعنوان « رأي في الأخلاق الشامية » يرسم فيه صورة مظلمة عن طبقات المجتمع كافة . وفي كتابه (أقوالنا وأفعالنا) ، ثم في (المذكرات) يروي حوادث لا تحصى عن فساد أخلاق الناس في هذا العصر ويشكو من انتشار الكذب والنفاق والحسد والغرور والمكر . وهو يعتقد أن السكوت عن العيوب عيب كبير وأنه لا سبيل الى النهضة قبل تقويم الأخلاق .

على أن الكثيرين من الذين أيدوا دعوة الأستاذ الرئيس الى تهذيب الأخلاق والعادات قد ساورتهم الشكوك في جدوى طريقته في الإصلاح القائمة على التشنيع السافر والنقد اللاذع والتقريع العنيف . بل ان بعض الباحثين يؤكدون أن أساليب الوعظ والإرشاد ، مهما اختلف مظهرها ، لا تؤدي وحدها الى إصلاح الفساد الأخلاقي ، ويقول هؤلاء ان أخلاق الأفراد انما تعكس

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية وانه لا يمكن لذلك تبديل هذه الأخلاق إلا بتغيير تلك الأوضاع .

وقد أهمل الأستاذ (محمد كرد علي) العلاقة بين الأخلاق وبين العوامل الاقتصادية والاجتماعية . لذلك لا غرابة اذا رأيناه يستسلم في آخر الأمر الى التشاؤم واليأس فيصرخ في أول كتابه (أقوالنا وأفعالنا) قائلاً :

«ليقل علماء الدين ما يقولون ، وليقرر علماء النفس ما يقررون ، وليكرر علماء الأخلاق ما يكررون ، فأنا أكره الشر ولا أقصد الآن الى مداواة صاحبه وأعشق العدل ولا أغضي عمن يهدم عموده ، وأرغب في النظم السليمة ولا أغالط النفس في استصلاح الفاسد . . . ومن يقل للصالحات استعداده ، أنت لا تخلق ما حرمته الفطرة إياه ، ولو جهدت كل جهدك» . ثم أضاف يقول : «وطال الأمد على هذه الدعوة وانقضى العمر في أمل لم يتحقق منه بعض ما كان يرتجى وصرفت في هذه السبيل جهود لم يسترد منها عشرها ، فهل من مطمع بعد هذا في أن نجعل من جذع يابس غصناً نضيرا ، ومن جسم ميت كائناً حيا ؟» .

ولئن رأينا الأستاذ يقول في ختام هذا البحث : «ولقد كنت ، كلما منيت النفس ، بأن الخير سيكون في الجيل الذي يجيء بعد الذي أنا أشكو منه ، أرى الزمان هو الزمان ، والناس هم الناس ، واذا الأبناء ينشأون على غرار الآباء ، واذا اللؤم والحسد والدناءة عسيرة العلاج . .» — ، لئن رأينا الأستاذ يقول ذلك فلا يسعنا إلا أن نخالفه وندعي بأن الإصلاح ليس مستحيلا ، وان كان عسيراً حقاً وأن الأجيال التي تعاقبت في الفترة الأخيرة قد ازدادت تقرباً من الخير وأن مواعظ الأستاذ (محمد كرد علي) وارشاداته نفسها قد كان لها بعض الفضل في ذلك الى جانب المؤثرات الأخرى .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

النزعة العقلية :

كان الأستاذ (محمد كرد علي) ، على الرغم من طبيعته العاطفية ، الانفعالية يؤمن بالعقل ويدعو الى سيطرته في حياة الفرد ونظام المجتمع . وقد جاء في كتبه بشواهد كثيرة من التاريخ تدل على أصالة هذه النزعة بين كبار المفكرين العرب والمسلمين الذين كان يريد الاقتداء بهم . فتراه مثلاً يقول عن الجاحظ انه « المعلم الأول ، يعلم الناس أن لا يؤمنوا بشيء الا اذا صح في نظام العقل ويريدهم على أن تدق ملاحظتهم ويرهف حسهم ، يعلم حرية النظر والبحث ولسان حاله : ان الدين لا يصلح بغير الدنيا وان الشريعة جاءت لإصلاح الأولى والأخرى » . (أمراء البيان جزء ٢ ص ٤٢٩) .

والسبب في إعجاب الأستاذ بالمدنية الغربية الحديثة يرجع الى اعتقاده بأنها قائمة على العقل والعلم . وفي رأيه انما تتجلى المدنية ، قبل كل شيء ، في السيطرة على الطبيعة وفي التقدم المادي . وقد قال : « الماديات هي السلم الموصل الى بلوغ القوة ، وأي معنويات لمن تجرد من المادة ؟ » (أقوالنا وأفعالنا ، ص : ٣١٢) .

انه كان في كل المناسبات يطالب بتوجيه الاهتمام الى الأمور المادية العملية المفيدة ، والابتعاد عن الخيالات والأوهام ، وكان يحارب المشتغلين بالمسائل الروحية والغيبية . واليكم ما كتبه في الجزء الرابع من المذكرات (صفحة ١٠٤٤) بعنوان « كتب الخيالات » ، قال :

« في العهد الأخير انصرفت همم بعض من يشتغلون بالفلسفة والإلهيات من رجال الجامعات العربية الى نشر بعض كتب قدماء الفلاسفة والمتصوفة . وكانت بعض النفوس تتشوف للوقوف عليها ، يتخيلون أن فيها أسراراً لو ظهرت لكشفت من نواميس الطبيعة ما تتقدم به الإنسانية وتصفى الأرواح من كثافاتها وينجو البشر من القتل والتزوير والسرقة والكذب والظلم . ولما ظهرت أسفار المتصوفة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

في حلتها الجديدة من العناية تجلى للأنظار أنها تافهة إلا من العبث الذي أحب بثه عشاق الغرائب والمولعون بالمجهولات على الأيام ، فضاعت فيها أعمارهم وأضاعوا أعمار من اشتغلوا بها » .

وفي الواقع كان الأستاذ (محمد كرد علي) لا يميل الى الفلسفة ولا يستسيغ البحث في مشاكلها ، ويبدو أنه قد تأثر بالاتجاهات الفكرية التي كانت سائدة لدى الغربيين في أواخر القرن التاسع عشر والتي كان معظمها ينكر للفلسفة والإلهيات ولا يعترف إلا بالعلوم المادية ...

الدعوة الى الاقتباس من الغرب :

ظل الأستاذ (محمد كرد علي) في جميع أدوار حياته يدعو الى الاقتباس عن المدنية الغربية الحديثة . نلاحظ اندفاعه وراء هذه الدعوة بوجه خاص في كتاب « غرائب الغرب » الذي يعتبر من أحسن مؤلفاته .

تكلم الأستاذ الرئيس في هذا الكتاب عن رحلاته الثلاث الى مختلف البلاد الأوروبية ، وعلى الأخص فرنسا وسويسرا والأندلس في سنة ١٩٠٩ ثم سنة ١٩١٣ وسنة ١٩٢١ . ولم يقتصر على وصف مشاهداته الذاتية ، بل أضاف الى ذلك كثيراً من المعلومات التي نقلها من الكتب أو الأشخاص العارفين . وقد بيّن في مذكراته (الجزء الأول صفحة ١٨٤) أنه ما كان يدخل بلدة قبل أن يطالع في وصفها كتاباً أو كتباً حتى يستفيد من زيارتها استفادة حقيقية . لذلك استطاع أن يتكلم باسهاب عن مختلف مظاهر الطبيعة والحياة البشرية في البلاد التي زارها ، على الرغم من أن مدة الإقامة فيها كانت قصيرة . فأطول فترة ، وهي التي قضاها في باريس ، لم تزد على الشهرين خلال الرحلة الأولى ثم على الشهر الواحد في سنة ١٩٢١ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كتب الأستاذ (محمد كرد علي) في مذكراته يقول : « كانت الغاية من رحلاتي تجديد مابرث من قواي وترويض الجسم وتسلية الروح والتعرف الى مدنية الغرب ودرسها في أرضها درساً عملياً » . ولا شك في أن الرغبة في الدرس والاطلاع كانت من أقوى الدوافع ، كما أشار الى ذلك أيضاً في الفصل الأول من كتاب « غرائب الغرب » ، إذ قال : « كان من أعظم أماني النفس منذ بضع سنين أن أرحل الى أوروبا رحلة علمية أقضي فيها ردحاً من الدهر للتوفر على دراسة حضارة الغرب في منبعثها واستطلاع طلع المعاهد التي منها نشأ المخترعون والمكتشفون والفلاسفة المنزهون والعلماء والعاملون والساسة المستعمرون والقادة والغازون والتجار والصناع والزراع والماليون ، وهم على التحقيق مادة تلك المدنية وهيولاها » .

وكانت الغايه من رحلته الثانية سنة ١٩١٣ هي ، على التخصيص ، زيارة مكتبة المستشرق الطلياني الأمير (قايتاني) للبحث في المخطوطات التاريخية العربية التي اشتهرت بها في العالم أجمع ، وقد استغرقت هذه الزيارة مدة شهر جمع الأستاذ (محمد كرد علي) خلالها مادة غنية لكتاب « خطط الشام » الذي كان يفكر دوماً في تأليفه ويستعد له منذ سنوات .

صور لنا الأستاذ الرئيس في كتاب « غرائب الغرب » مظاهر الحضارة الأوروبية التي تركت أعمق الاثر في نفسه . وقد أخذته الدهشة في الدرجة الأولى لمشاهدة (باريس) ، فأرسل اليها تحية حارة تفصح عما كان يشعر به من إعجاب وتقدير . وتتضمن هذه التحية (غرائب الغرب ، الجزء الأول صفحة ٤٨ — ٤٩) المبادئ العامة التي كان يؤمن بها . فنراه يسمي (باريس) « معلمة العالم كيف يكون الخلاص من الظالمين » ويقول انها « هذبت طبائع البشر حتى غدوا يشعرون باللطف والذوق وفائدة العلم والعمل » ، وانه « انبعث

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

منها تمجيد العقل ، بل تأليهه » ، ثم يخاطبها بقوله : « يا واضعة حقوق الإنسان والداعية الى ثل عروش الجبارين والمخربين . . . يا ملقنة الخلق معنى الإخاء والحرية والمساواة ليتعاشروا بالمعروف ويقوم نظام اجتماعهم على تبادل المنافع » .

لا بد أن تستولي الدهشة علينا ، نحن بدورنا ، عندما نقرأ اليوم هذه التحية . هل يمكن أن توصف (باريس) حقاً بأنها « مرضعة الحكمة وروح الانقلابات الاجتماعية والسياسية ومحيية المدنية الأصلية في الأقطار الغربية والشرقية » ؟ لا نعتقد أن الأستاذ الرئيس نفسه كان في السنوات الأخيرة من حياته يرضى باطلاق هذه الصفات على عاصمة الفرنسيين بعد أن تكشفت حقيقتها وافتضح زيفها وتفسخها . ولكن في الوقت الذي كتبت فيه تلك العبارات ، أي قبل الحرب العالمية الأولى ، كان أكثر الناس ما زالوا يؤمنون بمبادئ الثورة الفرنسية ويحسنون الظن بفرنسا وينتظرون انبعاث النور من باريس . ولا ننسى أن مبادئ الثورة الفرنسية كانت منبع الهام لمعظم المفكرين والمصلحين والكتاب العرب في القرن التاسع عشر . على أن الأستاذ (محمد كرد علي) قام بعد انتهاء رحلته الأولى فألقى خطاباً في المنتدى الأدبي باستانبول قال فيه انه أثناء إقامته في (باريس) سمع محاضرات وخطباً لم ير في أكثرها إلا تعصباً على الشرق وغمطاً لحقوقه . وذكر ، على وجه التخصيص ، محاضرتين : الأولى لعالم أثري كان قد عاد من التنقيب في تركستان الصينية وادعى بأن التعصب انتشر هناك بانتشار الاسلام في القرن الحادي عشر وأتى على الآثار بجملتها . ويعلق الأستاذ (محمد كرد علي) على المحاضرة بقوله : ان جسمه قد تكهرب بها وتأثرت عواطفه لأنه سمع مهانة أمته بأذنيه . والمحاضرة الثانية ألقاها السيد (تارديو) ، وهو من كبار السياسيين الفرنسيين ، على طلاب مدرسة اللغات الشرقية الحية فبحث في نشأة الامتيازات الأجنبية وعلاقة فرنسا بالشرق ، وأشار الى أن فرنسا في كل دور من أدوارها استخدمت الدولة العثمانية لمقاصدها وأنها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لا تقصر كل حين في بتر عضو من أعضاء هذه الدولة حتى تموت وتفنى .

وقد لاحظ الأستاذ (محمد كرد علي) بأن سياسة المنافع والمصالح كانت تلوح صراحة من خلال المحاضرة ثم صرخ قائلاً : « فيا إخواني ، أيسمع عثماني هذا الكلام ولا تجيش نفسه بالبكاء ولا تذوب كمداً وحسرة ولا تسود الدنيا في عينيه ؟ » ، (غرائب الغرب ، الجزء الأول صفحة ١٥٩) .

لم يكن الاستاذ الرئيس يجهل الأخطار التي تهددنا من الاستعمار الغربي وكان يذهب الى أننا لا نستطيع حفظ كياننا الا اذا قاتلنا من يريدون قتالنا بالسيف الذي يقاتلوننا به ، أي سيف العلم . ثم كان يقول : « لا يكفي أن نذكر مجدنا القديم ونورد الشواهد على أيامنا الغر المحجلة في تاريخ المدنية السعيدة ، فحضارة الغرب اليوم لا تبقي على ضعيف . لذلك يقتضي علينا أن نأخذ من تلك المدنية الغربية التي تدهشنا كل ما ينفعنا لقيام مجتمعنا » . (غرائب الغرب ، الجزء الأول ، صفحة ١٥٨ — ١٥٩) .

وقد وصف الأستاذ (محمد كرد علي) آثار الحضارة الغربية في التنظيم السياسي والاجتماعي وفي الصناعة والزراعة والتجارة ، واهتم على الأخص بمعاهد التربية والتعليم والمكتبات العامة والمجامع العلمية . ونراه في كل مناسبة يضرب الأمثلة على عناية الأوروبيين بالعلوم والفنون والآداب ، وعلى حبهم للعمل وعلى تضامنهم والتعاون بين حكوماتهم وشعوبهم عسى أن يكون في ذلك عبرة لبني قومه وقدوة يحتذونها .

فالأستاذ (محمد كرد علي) إنما كتب (غرائب الغرب) ليستنهض الهمم ويدعو الى الإصلاح . وهذا ما يعلل اقتصاره على وصف النواحي الجميلة من الحضارة الغربية والإشادة بمظاهر تقدمها وتفوقها . وهو يذكر لنا أن بعض أصحابه قد لامه على ذلك وأنه قد رد عليه بقوله : « إني كنت أريد أن أعرف قومي بالحسنات ينسجون على منوالها وما كنت أطمع في أن أشغل الأذهان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بأمور لا يخلو منها بلد انحط أو ارتقى ، وعندنا مما يماثلها ما لا ينفع تدوينه ونحمر خجلاً من ذكره . ومن العدل أن يقال اننا بقدر ما نرى في المدنية الحديثة من فضائل نرى فيها ما يقابلها من رذائل ، والفضائل تربو على غيرها كثيراً . فالأمثل بقومنا أن يقتبسوا الخير ويغضوا الطرف عن الشر » . (أقوالنا وأفعالنا ، صفحة ١١٢) .

آراء الأستاذ كرد علي السياسية :

كان الأستاذ (كرد علي) يدعو العرب والمسلمين الى الاقتباس عن الحضارة الحديثة لاعتقاده بأن ذلك هو السبيل الى القوة والى استعادة المجد القديم . ونرى الأستاذ لا يفصل أبداً بين العرب والإسلام ، ويتكلم في كثير من الأحيان عن الوطنية والقومية العربية . وقد اشتغل بالصحافة مدة طويلة وعالج الشؤون العامة وتولى منصب الوزارة أكثر من مرة . فما هي آراؤه السياسية ؟ كيف كان يتصور مستقبل بلاده ، وما هي الوسائل وأساليب العمل التي كان يعتقد بأنها صالحة لتحقيق الأهداف القومية ؟

من المؤكد أن آراء الأستاذ الرئيس السياسية قد تطورت مع مجرى الحوادث واختلاف الظروف وتقلب الأوضاع . وهذا أمر طبيعي . ولا شك في أن الأستاذ (محمد كرد علي) كان ، منذ أول نشأته ، على يقين من فساد الحكم التركي وتدهور الدولة العثمانية . وهو ربما يكون بعد الانقلاب العثماني سنة ١٩٠٨ قد اعتقد مع الكثيرين من أبناء جيله بأن الدولة العثمانية يمكن إصلاحها وبقاؤها . ولكن لم تنقض فترة من الزمن حتى أدرك أن سياسة حزب الاتحاد والترقي الحاكم سوف تؤدي الى انهيار الدولة وتقطيع أوصالها ، وقد انضم الى حزب الحرية والائتلاف المعارض الذي كان يجاهر بضرورة احترام حقوق العناصر غير التركية في الدولة ، وعلى الأخص العرب . ونراه بعد رحلته الثانية الى

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الغرب يلقي خطاباً جديداً في المنتدى الأدبي في شهر شباط من سنة ١٩١٤ يدعو فيه الطلاب العرب الى التمسك بقوميتهم . قال : « إننا لا نحيا إلا بقوميتنا على نحو ما كان أجدادنا أمس وحال أمم الحضارة الحديثة اليوم . ولكن هذا اللفظ الجميل ـ لفظ القومية ـ لا يطابق معناه مبناه الا باتخاذ جميع أسبابه على نحو ما يعمل المجر والبولونيون ... وما يجري من منافسة محمودة بين الفالونيين والفلامنديين في البلجيك والألمانيين والفرنساويين في سويسرة » . (غرائب الغرب ، الجزء الأول ، ص ٣٢٩) فالأستاذ (محمد كردعلي) لم يكن يقصد بالقومية مفهومها السياسي ، بل أراد بها أن تتساوى مختلف الشعوب في الحقوق ويحتفظ كل منها بلغته وتقاليده ضمن الدولة العثمانية . ومن الواضح أن هذا الرأي في القومية كان يتعارض مع المفهوم الذي أخذ يتبلور إذ ذاك لدى العرب والذي يتضمن ، قبل كل شيء الانفصال عن الدولة العثمانية وتوحيد الأقطار العربية في دولة مستقلة .

نشأ الأستاذ (محمد كردعلي) في عهد انتشار الدعوة الى الجامعة الإسلامية وتأثر بآراء المدافعين عن هذه الجامعة . ولكن تفكيره الواقعي منعه من الاندفاع وراء الدعوة ، فكتب يقول : « الى عهد قريب كان بعض المتحمسين يدعون الى الجامعة الإسلامية بدون أن يعدوا لها عدتها ، ويعلقون على تأليفها أعظم الآمال . ولقد كنت ، كلما سمعت هذه النغمة استبعد تحقيق الأمنية . ولذا لم أكتب في هذه الجامعة سطراً واحداً بالتعديل ولا بالتجريح . وكيف ، لعمري ، تتحقق الجامعة الاسلامية والمسلمون تحت سلطان دول متنوعة مشتتون في ثلاث قارات ، تتباعد أصقاعهم ألوفاً من الأميال ولا يكادون يتفاهمون اذا اجتمعوا ؟ . » (أقوالنا وأفعالنا ، صفحة ٣٣٥ — ٣٣٦) . انه كان يتمنى قيام جامعة إسلامية في شكل من الأشكال ، ولكنه يريد في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بادئ الأمر التمهيد لذلك بالدعوة الى التعارف والتآلف وتقوية الروابط المعنوية والصلات الروحية بين المسلمين .

ولم يكن الأستاذ (محمد كرد علي) يرى أي تعارض بين الإسلام والقومية العربية . فالإسلام ، حسب تعبيره ، « هو الذي جمع شمل العرب بعد تشتتهم وآخى بينهم مؤاخاة ما عهدوها وهذب نفوسهم حتى سلس قيادهم بعد شماسه ، وثقفهم ثقافة أفادوا بها . . . وهو الذي جعل في العرب خاصة في أخلاقها ساقتها الى العمل الصالح فوحد بين مقاصدها ووجهها الى هدف واحد » . (الإسلام والحضارة العربية ، الجزء الأول صفحة ١٣٥ — ١٣٧) . ولكن لا بد من الملاحظة بأن الفكرة الإسلامية عند الأستاذ (محمد كرد علي) كانت مجردة كل التجرد عن التعصب ولا تسمح أبداً بالتفريق بين المسلمين وغيرهم من أهل الأديان . واختلاف الدين ، في رأيه ، لا يتنافى مع الرابطة الوطنية والقومية .

كذلك فان التباين في أنظمة الحكم ومستوى الحضارة والتطور الاجتماعي لا يمنع من قيام الوحدة القومية بين أقطار عديدة اذا جمعت بينها ذكريات التاريخ ووحدة اللغة والمصالح والأهداف . وفي حديث من إذاعة القدس سنة ١٩٤٤ اعتبر الأستاذ (محمد كردعلي) تأسيس جامعة الدول العربية خطوة كبيرة في طريق الوحدة العربية . فذكر أن هذه الوحدة كانت أمنية العرب منذ عشرات السنين وان بعضهم كان يعدها حلماً من الأحلام ووهماً لن تحققه الليالي والأيام ولكن تبين أن ليس في السياسة المستحيل وأن الأمور مرهونة بأوقاتها » . ثم قال : « وعلينا ، معاشر العرب ، أن ندعو الى هذه الأمنية بالطرق العلنية نورد لمن لا يعرفنا صفحات من ماضينا وحاضرنا ليكون لنا من شعوب أوروبا وأمريكا نفسها أنصار يوافقوننا على إتمام رغائبنا التي هي رغائب البشرية » . (أقوالنا وأفعالنا ، صفحة ٣٤٤) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من هذه الأقوال يتبين لنا أن الأستاذ (محمد كرد علي) كان من أنصار الجامعة الإسلامية كرابطة روحية وأنه كان يدعو الى الوحدة العربية كفكرة قومية مدفوعاً بعاطفة الحب للعرب والإسلام دون أن يتعرض الى النضال السياسي — الشعبي ، لأنه كان دوماً يرغب في الانصراف الى الحياة الفكرية . وقد اعتقد أن أفضل وسيلة يخدم بها بلاده هي العمل على نشر المعرفة وتقدم العلوم والآداب . فاتجه بكل قواه الى العناية باللغة العربية وآدابها والى البحث في تاريخ العرب والإسلام وعلى الأخص تاريخ بلاد الشام ، وكان يؤمن بأن نهضة العرب والمسلمين تتوقف على دراسة تاريخهم واحياء تراثهم .

ليس من شأني أن أتكلم عن مؤلفات الأستاذ الرئيس في آداب اللغة العربية مثل مختاراته في كتاب « رسائل البلغاء » أو دراساته في كتاب « أمراء البيان » . انما لا بد لي من الإشادة بتأثير هذين الكتابين في تنمية الذوق الأدبي وتهذيب أساليب الكتابة لدى الناشئة العربية في هذا العصر .

انني سوف أقتصر على استعراض دراسات الأستاذ التاريخية ، ولا سيما كتاب « خطط الشام » ثم كتاب « الإسلام والحضارة العربية » .

تاريخ الشام :

يتألف كتاب « خطط الشام » من ستة أجزاء ، وهو عبارة عن موسوعة أو دائرة معارف تحيط بكل الأخبار عن تاريخ الديار الشامية وحضارتها من أقدم العصور حتى سنة ١٩٢٥ .

كان الأستاذ (محمد كرد علي) قد نشر في سنة ١٨٩٩ في مجلة المقتطف تسع مقالات عن (عمران دمشق) صادفت استحساناً لدى القراء ، فدفعه ذلك الى التفكير في أن يتوسع في هذا البحث وأن يكتب عن عمران الشام كله . ومنذ ذلك الوقت أخذ يتصفح كل ما ظفر به من المخطوطات والمطبوعات باللغات

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

العربية والتركية والفرنسية . وكان يقصد دور الكتب الخاصة والعامة في الشام ومصر واستانبول للتفتيش عن مصادر جديدة . ولهذه الغاية في الدرجة الأولى قام برحلاته الثلاث الى البلاد الأوروبية وزار المكتبات المشهورة فيها .

على أن الأستاذ كان كلما استكثر من المطالعة تتجلى أمامه صعوبة العمل . وقد ظل مدة من الزمن محتاراً في كيفية ترتيب الموضوع : هل يجعل التاريخ السياسي حسب السنين أم حسب الدول ، وهل يتكلم على القطر عامة أم على كل اقليم باقليمه ، ثم لما انتهى في سنة ١٩٢٥ من التأليف ، بالحاج من أصدقائه ، تردد في طبع الكتاب . وهو يقول في ذلك : « ولقد وددت ، لما تيسر وضع خطط الشام على هذه الصورة ، لو ساغ لي أن أصبر عليه زمناً آخر حتى يتم التحقيق فيه على ما يجب ، ولكن رأيت ، بعد طول التأمل ، أن من الحزم الاكتفاء بما تهيأ في هذه السنين ، والتمحيص بحر لا ساحل له ، فأبرزته . . . وأنا موقن بأن فوق ما طالعت وبحثت غايات لم يمكني الزمان والمكان من بلوغها ، وعسى أن يقوم غيري بعدي فيتم هذه الخطوط التي رسمتها من بنيان كتاب الخطط ويصلح بما يتوفر له من المواد ما ربما وقعت فيه من الغلط والشطط » . (مقدمة الخطط : صفحة ٩) .

وقد اضطر الأستاذ الى الاكتفاء بخلاصة قصيرة عن تاريخ الشام القديم لا تزيد على (١٨) صفحة وقال : « كنت أحب التوسع أكثر من ذلك لولا الخوف من الوقوع في نقل ما لم يتفق الباحثون عليه . والتعرض للمجهولات يؤدي الى سقوط في غلطات أو خيالات أو حكايات متناقضات . ولعل عناية علماء العاديات في عصرنا توصلهم الى اكتشاف ما كان مجهولاً من تاريخ هذه الديار كلما أوغلوا في حفرياتهم » . (خطط الشام ، الجزء الأول ، صفحة ١٠٤) ثم هو يعترف بأن الكلام جاء ناقصاً في بعض الأدوار المتأخرة وأن بعض مواضع مهمة ذات صلة بمدنية الشام لم تنكشف له . (انظر : الخطط ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الجزء الأول صفحة ٧) ولما رأى الأستاذ أن وصف التطور الحديث للزراعة والتجارة والصناعة في بلاد الشام يحتاج الى دراسة اختصاصية لم يتردد في الاستعانة بالاخصائيين من أصدقائه فطلب اليهم كتابة بعض الفصول أو تزويده بالمعلومات الفنية .

إن الأستاذ الرئيس لم يذكر الصعوبات التي اعترضت طريقه ونقاط الضعف البارزة في كتابه على سبيل المباهاة واصطناع التواضع ، بل بدافع الاخلاص للعلم وحباً في الإصلاح .. فهو يعرف أن مهمة المؤرخ في هذا العصر قد أصبحت عسيرة جداً لأنه يحتاج الى الاستعانة بكثير من العلوم ، مثل علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الاقتصاد والسياسة بالإضافة الى دراسة الوثائق والكتابات والنقود والخ .. وكان لذلك يرى ضرورة التعاون بين الاخصائيين عند كتابة التاريخ العام . كما انه لم يكن يجهل العوامل التي تدفع المؤرخين الى االتحيز والتعصب والمبالغة والتحريف .

ولكنه كان يعتقد بأن واجب المؤرخ هو أن يتحرر من تأثير الأهواء السياسية والدينية فيسعى الى معرفة الواقع ويبسط لأمته حقائق ماضيها وحاضرها ويقفها على جلية أمر المحسن والمسيء ويروض قلبها على قبول الحق . وفي الواقع كان الأستاذ الرئيس يكره التقية ويحب الصراحة . وقد ذكر قول بعض الفقهاء « ونسكت عما شجر بينهم ، أي بين الصحابة » فوصفه بأنه « كلام من لا أرب له في غير العافية » وأضاف قائلاً ، « ولو شايعناهم على هذا الرأي لأضللنا طريق الهدى في قيام أمرنا » . (أقوالنا وأفعالنا ، صفحة ٢٣٥) . كذلك فان الأستاذ قد هاجم ابن خلدون لأنه نهى عن الخوض في موضوع الخلاف بين الصحابة ولا سيما بين عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب فقال : « نزع ابن خلدون ثوب المؤرخ ولبس ثوب الواعظ القصاص أو هو يريد أن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

يتأدب أدب السياسي المهذب مع الجماعة لا يقول لصاحب الأمر ما يزعجه فيرضى بالحالة الحاضرة على علاتها ويحاول أن يكم أفواه الرعية لأنها اذا قالت فعلت ، وما حسب حساباً للأهواء البشرية والمطامع الدنيوية ، فكأنهم ما أخطأوا في نظره وكأنه يزعم أنهم لا دخل لإرادتهم التي خلقها الله لهم فيما قضوا وأمضوا ..»

(كنوز الأجداد ، صفحة ٣٩٤) أعتقد أن الأستاذ (محمد كرد علي) قد ظلم ابن خلدون واتهمه بما هو بريء منه ، ولكن كلامه يساعدنا على معرفة نظرته الى التاريخ ويستحق ان نشير اليه . وقد تعرض الأستاذ نفسه الى سياسة الخلفاء الراشدين والى الخلاف بين علي ومعاوية فكيف عالج هو الموضوع ؟

قال الأستاذ الرئيس في كتابه « الإسلام والحضارة العربية » (الجزء الثاني صفحة ٣٨٦) : « . . . وبعد فان الخلفاء الراشدين قاموا بخلافة النبوة على أكمل وجه أمكن ، واذا لاحظنا اليوم أنه وقع من بعضهم شيء فهو منهم محض اجتهاد ، والمجتهد يصيب ويخطيء ، والسياسة صعبة المراس على كل الناس ، وما كان للبشر أن تجيء أعمالهم تامة من كل الوجوه . . . » فهل يختلف هذا الرأى كثيراً عن رأي ابن خلدون ؟

ثم ان الأستاذ قد نشر في آخر المجلد السادس من « خطط الشام » الملاحظات التي أبداها بعض الناقدين على كتابه ، وبين هؤلاء الأمير شكيب أرسلان والأستاذ عارف النكدي ، اللذان اتهاه بالتعصب لبني أمية .

وفي الحقيقة دافع الأستاذ (محمد كرد علي) عن إسناد الخلافة الى يزيد ابن معاوية ، كما انه وقف الى جانب الأمويين في نزاعهم مع العلويين . ولكن لا يمكننا الادعاء بأن الاستاذ قد اندفع هنا مع عواطفه وتأثر « بالنعرة الشامية » . فهو قد بحث الموضوع كما يجب أن يبحثه كل مؤرخ : انه قد ذكر جميع الروايات المنقولة والآراء المتضاربة وسعى الى الكشف عن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أسباب الوقائع ولم يصدر حكمه إلا بعد مناقشة الموضوع من كل الوجوه ، وبذلك كان مخلصاً للنظرة الموضوعية العلمية . ومما يسترعي النظر أنه قد اتفق مع ابن خلدون في تعليله لإقدام معاوية على إيثار ابنه يزيد بولاية العهد دون سواه ، إذ قال إن السبب في ذلك هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس على بني أمية أصحاب أقوى عصبية في قريش . (الخطط ، الجزء الأول ، صفحة ١٤١) .

أما موقفه من الخلاف بين الأمويين والعلويين فيتفق أيضاً مع النظرة العلمية في التاريخ . يقول الأستاذ : « ان الخلاف بين الامويين وخصومهم من العلويين ما يزال يقوى ويضعف ، وما هو الا خلاف سياسي نشأ من النزاع على الملك وليس من الدين في شيء . فليس إذاً من العقل أن تتسلسل هذه الأحقاد في الأمة وتتفرق شيعاً وتظهر بمظهر التعصب والتشيع . . » ثم يزيد رأيه وضوحاً إذ يقول : « إن مسألة الخلاف بين علي ومعاوية قد مضى عليها الزمن وكان لكل منهما اجتهاده ، وهي من المسائل المؤلمة في تاريخنا يجب أن ندرسها بانصاف . . . فالأمة يجب عليها أن تعرف مواطن الضعف والقوة من جسمها وتكشف حقائق ماضيها لأنها ابنة حوادث ماضية ، والواجب في البحث أن لا يثير في النفوس أحقاداً . . . » (الخطط ، الجزء الأول ، صفحة ١٦٦) .

يتبين لنا من ذلك أن الأستاذ الرئيس لم يقتصر في كتاب « خطط الشام » على جمع الكثير من الأخبار والمعلومات المتصلة بتاريخ هذا القطر وتطوره الحديث والتي كانت مبعثرة في مئات المراجع القديمة والحديثة ، بل أقدم أيضاً على تحليل بعض الحوادث الهامة واستخلاص العبر منها . فهو انما انصرف الى البحث التاريخي لإيمانه بأن نهضتنا في الحاضر والمستقبل تتوقف على معرفة الماضي معرفة صحيحة والاستفادة من تجاربه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الدفاع عن العرب والإسلام :

يروي الاستاذ (محمد كردعلي) في مقدمة كتابه « الإسلام والحضارة العربية » ثم في « المذكرات » (الجزء الأول ، صفحة ٣١٦) انه عندما دعي الى مؤتمر المستشرقين في (ليدن) سنة ١٩٣١ ، اقترح عليه أعضاء مجمعكم المحترمون أن يوجه الأنظار إلى ما يبديه بعض المؤلفين في الغرب من تحامل على الإسلام والعرب ومن طعن بتاريخهم وحضارتهم . وقد عدل الأستاذ بعد ذلك عن السفر ولكن موضوع الرد على خصوم العرب والإسلام كان قد استهوى فؤاده فانقطع الى دراسته وتشعبت به مسالك البحث فلم يقف عند مناقشة هؤلاء الخصوم ونقض أقوالهم ، بل أتبع ذلك بوصف مدنية العرب المدينة للإسلام بانبعاثها وحسناتها ، فتكلم عن تمثل العرب للحضارة وعنايتهم بالعلوم والآداب والفنون وعن انتشار لغتهم وقارن بين حالة العرب وحالة الغرب في القرون الوسطى وكشف عن أثر الثقافة العربية في أوروبا وعقد فصولاً خاصة لمدنية العرب في الأندلس وصقلية وبحث في الحروب الصليبية وفي غزوات المغول والأتراك ثم في غارات المستعمرين الغربيين على البلاد الإسلامية . وقد جمع هذه المباحث في الجزء الأول من كتابه « الإسلام والحضارة العربية » ، أما في الجزء الثاني الذي يؤلف وحده مجلداً ضخماً فقد ألقى الأستاذ نظرة اجمالية على العلوم والمذاهب عند المسلمين ثم استرسل في الكلام على الإدارة والسياسة في الإسلام .

ان الكثيرين من الذين طالعوا كتاب « الإسلام والحضارة العربية » قد أبدوا رأي الأمير شكيب أرسلان في أنه خير ما كتب الأستاذ (محمد كردعلي) وأنه كفى الناس مؤونة نشدان الأدلة من هنا وهناك للرد على المغالطين والمكابرين والمتجاهلين . ولا غرابة في ذلك ، فقد سلخ الأستاذ في تأليفه ثلاث سنين يعمل على التوالي وبحماسة ورجع الى أكثر من خمسمائة مصنف لجمع مواده .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ويمكن القول انه لم يترك شاردة ولا واردة إلا ذكرها من الأخبار المتعلقة بأساليب الإدارة والسياسة عند خلفاء المسلمين وملوكهم . كذلك استقصى الأستاذ المسائل التي يرددها خصوم العرب والإسلام وكشف عن العوامل التي تدفع بعض المستشرقين الى تشويه الوقائع ومخالفة الحقائق من تعصب ديني وطمع استعماري وأوهام موروثة وجهل مقصود وقد جاء بشواهد كثيرة من مؤلفات الغربيين الذين أنصفوا الإسلام والعرب ، وفي مقدمتهم (غوستاف لوبون) لتفنيد أقوال المغرضين .

ولما كان الكثيرون من الذين يهاجمون العرب والإسلام لا يتقيدون في المعتاد بقواعد البحث العلمي وشروطه ولا يهتمون بالوقائع والبراهين فقد اضطر الأستاذ (محمد كرد علي) الى أن يستخدم مع هؤلاء طريقة الجدل والهجوم المعاكس . هكذا عندما رأى مؤرخاً أمريكياً اسمه (كوفن Goweu) يتهم الشريعة الإسلامية بأنها « حفظت في تضاعيفها شروراً اجتماعية تئن منها الانسانية » ، قام يرد عليه بقوله : « إن الكاتب الأمريكي ربما قال هذه الجملة وهو لم ير في حياته مسلماً ولا قرأ كتاباً معتمداً من كتب العرب ، قالها بدافع هو يعرفه أو فاه بها ليأتي بالغريب ، وأميركا مهد الغرائب . وهو ، لو أنصف لفسر هذه الشرور التي اتهم بها الإسلام وأنّت منها الإنسانية . كأن الإنسانية لم تئن مثلاً من معاملة الجنس الأبيض للأسود في أميركا ... وكأن الإنسانية لم تئن من الحروب الدينية التي أهلكت فيها الامبراطورة (تيودورا) وحدها نحو مائة ألف من المانويين في أواسط القرن التاسع .... وكأن الانسانية راضية عن أعمال ديوان التحقيق الديني الذي قتل في اسبانيا وحدها ، كما قال « ريناخ » نحو مائة ألف انسان على أقل تعديل ... » (الاسلام والحضارة العربية ، الجزء الأول ، صفحة ١٣ — ١٥) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كان الأستاذ (محمد كرد علي) يندفع مع العاطفة ويغضب أشد الغضب اذا ما شعر بأدنى تحامل على العرب والاسلام . إلا أنه لم يكن ، من جهة ثانية ، يجهل ما يتطلبه البحث العلمي من حياد وتجرد وانصاف . وقد كان همه الأول تحري الحقيقة والدفاع عنها بحماسة وقوة . فهو يقول : « والمهم في تاريخنا أن نقلبه كل مقلب لا ندلس فيه ولا نوالس لنتعرف الحقائق في صورتها الجلية النافعة » . (الاسلام والحضارة العربية ، الجزء الثاني ، صفحة ٩٢) ثم يصرح قائلاً : « واذا أولع العرب بتاريخهم فليس معنى ذلك أنهم يدعون أنهم كانوا أول من أرخ لهم من الأمم أو أنهم كانوا البادئين بأسس المدنية . وما ادعى المسلمون قط أنهم نزلوا بحضارتهم من السماء ؛ بل ادعوا وأثبتوا دعواهم أنهم أخذوا حضارات الأمم القديمة وزادوا عليها ما وسعتهم الزيادة فأوصلوها بأمانة الى أهل المدنيات الحديثة » . (الاسلام والحضارة العربية ، الجزء الأول ، صفحة ٥٥) .

وقد استحسن الأستاذ كل الاستحسان الجهود المبذولة بعد الحرب العالمية الأولى « لتوحيد التاريخ في العالم وتقليل مصادر الأحقاد بين الأمم » ، وأعرب عن اتفاقه في الرأي مع « طائفة من العقلاء في الغرب ترى نبذ كل ما يثير الحقد ويدعو الى الظنة ويفك عرى الالفة » . ثم قال : « ولن يتم قيام هذا المجتمع الحديث إلا بتعاون الشرق مع الغرب تعاوناً حقيقياً يقوم على الحرمة المتبادلة والمصلحة المشتركة والعدل الذي لا يتجزأ . وللبشر اليوم مقصد أسمى من الخلافات والمناقشات التي جاءت القرون اثر القرون وما زالت بحالها لم تورث النفوس إلا اشمئزازاً . البشر بعد هذا التقارب في المواصلات والافكار أحوج ما كانوا الى التعارف والتعاطف وانصاف بعضهم بعضاً ليقوم نظامهم على الوئام والسلام » . (الاسلام والحضارة العربية ، الجزء الأول ، صفحة ١١ — ١٢) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هذا الكلام دليل قاطع على تحرر الأستاذ من التحيز والتعصب الأعمى كما أنه يشير الى ما اتصف به من تفكير علمي وروح إنسانية .

سادتي الأفاضل !

إن الأجيال المختلفة لا تتعاقب فحسب ، بل هي كذلك ينبثق بعضها عن بعض . فالجيل الناشئ يتلقى من الجيل السابق معظم تقاليده وعاداته ومفاهيمه وأفكاره وعقائده ، كما يرث عنه الكثير من المشاكل . وتتوقف سرعة تطور المجتمع على مقدرة الجيل الناشئ في حل هذه المشاكل وتحوير تلك العادات والتقاليد ثم في ابداع عقائد وأفكار ومفاهيم خاصة تستمد عناصرها من الماضي وتتلاءم مع الحاجات والأوضاع الجديدة . فالصلة بين الأجيال المتعاقبة قد تضعف أحياناً ولكنها لا يمكن أن تنقطع ما دام المجتمع قائماً ومحافظاً على كيانه . .

كان الأستاذ (محمد كرد علي) من الأفذاذ النابغين الذين يمثلون جيلهم أحسن تمثيل ويعبرون عن مشاعره بأفصح لسان . لقد أخذ عن الجيل الذي قبله خلاصة ثقافته وأضاف اليها الكثير من المعلومات والمفاهيم عن طريق المطالعة والدراسة الشخصية . وقد تأثر بالتيارات السياسية والاتجاهات الفكرية التي سادت في مختلف أدوار حياته فلم يتردد في أن يخوض غمارها ويلعب دوراً هاماً فيها . وبذلك كان له تأثير عميق في أبناء جيله والجيل الذي بعده . ومن منا ، أيها السادة ، لم يقتبس من أنوار الأستاذ الرئيس ولم ينهل من معينه ؟

لم يكن الأستاذ (محمد كرد علي) صلة الوصل بيننا وبين الجيل الماضي ، جيل محمد عبده وطاهر الجزائري فحسب ، بل أيضاً بين عصرنا والعصور الغابرة من تاريخ العرب والإسلام التي أعادها الى الحياة في كتبه وكشف لنا عن روعتها وهدانا الى معرفة حقيقتها وجوهرها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وإذا كان الأستاذ قد بدرت منه في بعض الظروف انتفاضات عنيفة واذا كان قد وقع أحياناً في تناقضات صارخة ، فذلك أمر طبيعي ، لأنه عاش في زمن كله ثورات وتناقضات وكان أولى الناس بالتعبير عن هذه الثورات والتناقضات ، شأنه في ذلك شأن كل العباقرة والنابغين الذين تتبلور فيهم حياة عصرهم وتنعكس جميع التيارات والاتجاهات . ومن حق العباقرة والنابغين أن يقتحموا لجج التناقضات لأنهم وحدهم يستطيعون التغلب عليها .

واذا كنا عاجزين عن التحليق مع الأستاذ الرئيس في الأجواء الصاخبة فما أجدرنا بأن نسترشده في متابعة الطرق التي مهدها لنا وفي تحقيق الأهداف التي رسمها .

وأقصى ما أرجوه هو أن أستطيع القيام بقسط متواضع من هذا الواجب فأكون بذلك عند حسن ظنكم والسلام عليكم . . .

محمد كامل عياد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net